مع ابن سينا في هيره الأفقى

ملوك وأمراء

فى حياة الرئيس ابن سينا

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

لعل أوثق المصادر عن ابن سينا وحياته هو الشيخ الرئيس ابن سينا نفسه فى الترجمة التى كتبها بجيبا بها عن سؤال أحد تلاميذه إياه . وقد أكمل هذه الترجمة تلميذه وتابعه وصاحبه منذ أن اتصل به فى إقليم جورجان إلى حين وفاته . وهذه الترجمة محفوظة بالمتحف البريطانى (١) فى نسخة لا تزال خطية . وقد استفاد منها ابن أبى أصيبعة فنقلها فى كتابه « عيون الأنباء »(٢) كما نقل أكثرها المؤرخ القفطى المصرى فى كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » (٣)

ولقد عاش ابن سينا فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى والثلث الأول من القرن الخامس ، لأنه توفى فى سنة ٤٢٨ هـ وهو عصر كثر فيه تقسيم الدولة العباسية إلى دويلات صغيرة ، فهناك الدولة البويهية التى وقع تحت سلطانها خلفاء بغداد ، وخاصة الطائع والقادر والقائم الذين عاش ابن سينا فى مدة خلافتهم (٤) . وهناك الدولة السامانية ببخارى فى إقليم خراسان وما وراء النهر . وكان الأمير نوح بن منصور بن سامان هو الأمير الثامن (٥) من ملوك هذه الدولة ، وهو الأمير الذى دعى ابن سينا لمداواته كما سيأتى بعد (٦) . وكان هناك دولة المأمونيين ولاة خوارزم الذين سميت دولتهم بالدولة الخوارزمشاهية. وهى دولة لا يعرف على وجه التحقيق اسم مؤسسها .

(١) جهار مقالة للسمرقندى . ص ١٧٦ تعليقات العلامة القزوينى
(٢) عيون الأنباء حـ ٢ ص ٣
(٣) طبعة الخانجى ص ٣٦٩ — ٣٧٨ هـ
(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى بك حـ ٣ ص ٤٤٠
(٥) المصدر السابق ص ٣٤٨
(٦) عيون الأنباء حـ ٢ ص ٤ والقفطى ص ٢٧١ طبع مطبعة السعادة ١٩٠٣

ولكن اسمها يبدأ فى الظهور منذ سنة ٣٨٠ هـ — أى بعد ميلاد ابن سينا بعشر سنين — وفى عهد أميرها الثانى على بن مأمون بن محمد بن خوارزم مشاه جاء ابن سينا من بخارى إلى جرجانية « كركانج » فأكرم الأمير وفادته ، وأمر له بمشاهرة دارة تقوم بكفاية مثله (٧) . وهناك كانت دولة جرجان وكان ملكها الأمير قابوس بن وشمكير الكاتب المترسل الأمير الذى قصده ابن سينا بعد خروجه من خراسان ، ولكن اتفق فى تلك الأثناء أن قبض على الأمير قابوس وحبس فى بعض القلاع ومات هناك (٨) . وكان هناك من ملوك الديلم مجد الدولة بن فخر الدولة الديلمى . ومجد الدولة هذا هو أخو شمس الدولة من ملوك همذان . وكانت الأميرة « سيدة » والدة مجد الدولة الديلمى هى المرجع فى تدبير الملك ، وعن رأيها يصدر الأمراء والولاة فى مباشرة الأعمال (٩) : وكان هناك دولة أصفهان وأميرها علاء الدولة بن كاكويه ، وكان ملكا على أصفهان وملحقاتها ، وحكم من سنة ٣٩٨ إلى سنة ٤٣٣ وكان أبوه خال الأميرة « سيدة » والدة مجد الدولة بن بويه الديلمى ، ولهذا سمى « كاكويه » لأن الخال فى لغة الديلم يسمى « كاكو » أو « كاكويه » (١٠) وعلاء الدولة هذا هو الذى اتصل به الشيخ الرئيس ابن سينا ، وصار من أصحاب الحظوة عنده ، وبقى فى خدمته إلى آخر عمره ، ولكنه لم يكن له وزيرا فى يوم من الأيام (١١) . أما الوزارة فكانت من ابن سينا لشمس الدولة أخى مجد الدولة ؛ فقد وزر له مرتين مابين سنتى ٤٠٥ هـ ، ٤١٢ هـ

وكان هناك — فوق ذلك — فى عصر ابن سينا الدولة الغزنوية التى كان أول ملوكها « سبكتكين » سنة ٣٦٦ هـ . كما كان محمود الغزنوى — المعروف بيمين الدولة محمود بن سبكتكين — هو ثالث ملوكها . وهذا الفاتح العظيم قد أثار حروبا كثيرة فى حياته وفى عصر ابن سينا بالذات . فهو فوق غزوه لبلاد الهند

(٧) جهار مقالة — طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ١٦٩ . وعيون الأنباء . والقفطى ص ٢٧١
(٨) عيون الأنباء حـ ٢ ص ٤ ، والقفطى ص ٢٧١
(٩) الكامل لابن الأثير حـ ٧ ص ١٨٦
(١٠) العروضى السمرقندى ص ١٧٤
(١١) المصدر السابق ١٧٤

وفتحه لها قد حارب دولة خوارزمشاه (١٢) وملك خوارزم سنة ٤٠٧ هـ . وهى دولة اتصل ابن سينا بها وبأميرها على بن المأمون كما أسلفنا . ولم يكتف محمود الغزنوى بهذا ، بل استغل ما بين الأمراء والملوك حوله من خصومات ونزاع ، فدخل بينهم لمصلحة دولته الناشئة الفتية . كما فعل فى الحرب التى قامت بين سلطان الدولة البويهى وأخيه أبى الفوارس بن بهاء الدولة . وكان محمود الغزنوى كان يستعد لافتراس هذه الدويلات المتقاطعة المتناحرة دولة بعد دولة . وكان همه بالذات متجها إلى إمارات بنى بويه ، ففى سنة ٤٢٠ هـ اتجه إلى إقليم الرى ، وكان عليه الأمير محمد الدولة بن فخر الدولة بن بويه فملكه محمود الغزنوى . كما ملك إقليم الجبل . وفى سنة ٤٢١ هـ وجه مسعود ابن يمين الدولة الغزنوى جيشا إلى إقليم همذان . أما علاء الدولة بن كاكويه — وهو الأمير الذى اتصل به ابن سينا فى أصفهان — فلم يسلم من غارات الدولة الغزنوية التى دخلت جيوشها « الرى » فانهزم علاء الدولة وجرح فى رأسه وكتفه وهرب تاركا إقليمه فى يد السلطان مسعود الغزنوى بن محمود الغزنوى (١٣)

على أن هذه لم تكن آخر حروب السلطان مسعود الغزنوى ابن محمود الغزنوى ضد علاء الدولة بن كاكويه : ففى سنة ٤٢٥ هـ — أى قبل وفاة ابن سينا بثلاث سنوات — اتفق علاء الدولة مع فرهاذ بن مرداويج على قتال عسكر السلطان مسعود الغزنوى . ولكن الحظ خان علاء الدولة حتى بعد احتمائه بالجبال الشاهقة بين أصبهان وجرباذقان . فتقدم أبو سهل الحمدونى قائد جيش الغزنوى إلى أصبهان وملكها . وفى هذه المعركة نهبت خزائن علاء الدولة بن كاكويه وأخذت أمواله الطائلة . وفى هذه المعركة بالذات كان الشيخ الرئيس ابن سينا فى خدمة علاء الدولة — ولم يكن وزيراً له — فأخذت كتب الشيخ وحملت إلى غزنة — عاصمة الدولة الغزنوية — وجعلت فى خزائن كتبها إلى أن أحرقت على يد عساكر الحسين الغورى (١٤)

لقد عاش ابن سينا فى هذا العصر الزاخر بأحداث كبار ، ورأى بعينيه كيف كان يتقاتل الإخوة وأبناء العم على الملك والسلطان ، كما حدث بين أفراد أسرة بنى بويه فى الرى وأصفهان وهمذان وجرجان ؛ بل اتصل من قرب بالأمير شمس الدولة بن فخر الدولة أمير همذان ، وشاهد الأحداث التى جرت له مع أقاربه بنى بويه من ناحية ، ومع ملك الغزنويين من ناحية أخرى . واتصل ابن سينا أكثر من ذلك بالأمير علاء الدولة بن كاكويه ؛ وهو يتصل ببنى بويه أيضاً — لأن والده « دشمنزيار » هو خال الأميرة « سيدة » والدة محمد الدولة بن فخر الدولة البويهى . وشاهد ابن سينا فى أثناء اتصاله بابن كاكويه كثيراً من الأمور الجسام ، فلم تسلم مدينة من مدن العراق وفارس من ثورة أو غارة للمتحاربين المتنابذين ، بل لم تسلم أصبهان نفسها من حوادث النهب والسلب على أثر استيلاء جند السلطان مسعود الغزنوى عليها . وفى غمار هذه المعركة نهبت كتب الشيخ الرئيس ونقلت إلى غزنة ، إلى أن كتب عليها أن تحرق على يد محارب آخر من رجال الدولة الغورية

وقد لقى ابن سينا من ملوك الدول القائمة فى عصره الأمير نوح بن منصور السامانى ، والأمير على بن المأمون الخوارزمشاهى ، والأمير شمس الدولة بن فخر الدولة البويهى الديلمى ، ووزر له مرتين ، والأمير علاء الدولة بن كاكويه أميرأصبهان ، واتصل به وألف باسمه كتباً كثيرة ، ونكب معه فى غارة السلطان مسعود الغزنوى على أصبهان . أما الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير ملك جرجان فيظهر من كلام الشيخ ابن سينا نفسه أنه لم يقابله ، وأنه كان يقصده ، فاتفق القبض على قابوس وحبسه فى بعض القلاع وموته . وهو نص لا يدل على لقاء الشيخ الرئيس لهذا الملك الأديب العظيم ... إلا أن العروضى السمرقندى صاحب كتاب « جهار مقالة » يذكر حادثة طريفة بارعة عن ابن سينا واستخباره أحوال بعض العاشقين واسم

(١٢) ابن الأثير حـ ٧ ص ٢٨٢
(١٣) الكامل لابن الأثير حـ ٧ ص ٣٤٨
(١٤) الكامل لابن الأثير حـ ٨ ص ٦